

سورة الكهف (الآيتان: 44 - 45)

13

١٣

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف حقيقة الدنيا من خلال المثل المضروب في الآية.
- 2- أن أدرك أهمية الباقيات الصالحات وفضلها.
- 3- أن أستشعر عظم ثواب الآخرة وأقوي رغبتي في ما عند الله.

تمهيد

بعد أن بينت الآيات السابقة الحوار الذي دار بين صاحب الجنتين ورفيقه المؤمن، وما ساقه المؤمن له من حجج وتذكير بنعم الله، وتحذير من مغبة الظلم وعاقبة الكبر، انتقلت آيات هذا الدرس، إلى ضرب المثل مرة أخرى لبيان حال الدنيا وسرعة زوالها واضمحلال ما فيها من النعيم والمتاع.

فما هي حقيقة الدنيا؟ وما مناسبة المثل المضروب لقصة صاحب الجنتين؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَنَا مَثَلًا مِّنَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَاۤ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَفَ فِيهِۦٓ نَبَاتٌ ۖ لَّا يَرْثُهَا صَبۡغٌۭ فَخِشِيمًا تَذۡرُوهَ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٤
الْمَالُ وَالْبَنُوۡنَ زِينَةُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَٰلِغَاتُ الصَّٰلِحَاتُ خَيْرٌۭ عِندَ رَبِّنَا ثَوَابًا وَخَيْرٌۭ
أَمَلًا ۝٤٥﴾ [الكهف: 44 - 45].

الفهم

الشرح:

فَاخْتَلَفَ: فامتزج.

قَشِيمًا: يابسًا.

تَذْرُوءٌ: تتسفه وتثيره في الهواء.

استخلاص مضامين الآيات:

1 - ما المثل الذي ضربه الله تعالى لحقيقة الدنيا؟

2 - بم وصف الله تعالى المال والبنين؟ ولماذا؟

التفسير

اشتملت هاتان الآيتان على ما يأتي:

أولاً: حقيقة الحياة الدنيا:

قال سبحانه: ﴿وَأَضْرِبْ لَنُفْمٍ مِّثْلَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَفَ فِيهِ نَبَاتٌ الْآرْضِ فَأَصْبَحَ قَشِيمًا تَذْرُوءُ الرِّيحِ﴾، هو مثل آخر ضربه الله تعالى في هذه السورة بعد قصة أصحاب الكهف والرقيم، وبعد مثل الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين، وما وقع بينهما من حوار وكيف انتهت عاقبة المغتر بزهرة الدنيا وزينتها إلى البوار. وفي هذا المثل بيان لحقيقة الدنيا التي دفعت صاحب الجنتين إلى الاستكبار والجحود، فكان مثالا للإنسان الكنود. فجاءت هذه الآية أيضا تشبه الحياة الدنيا في سرعة اضمحلالها وزوالها بما يحدث كل عام من نزول المطر واخضرار الأرض، ثم تحول نباتها بعد النضارة والبهجة إلى هشيم وحطام.

وقوله: ﴿الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: حياة الإنسان بما يتعلق بها من نعم وترفيه، وقوله: ﴿كَمَا﴾ يريد هي كما، وقوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من السحاب الذي في السماء وهو مجاز أطلق فيه المحل وأريد الحال فيه. وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: فاختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماء، فالباء في ﴿بِهِ﴾ باء السببية، وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ هو عبارة عن صيرورته إلى

ذلك، لا أنه أراد اختصاصه بوقت الصباح. أي: صار بِانْقِطَاعِ الْمَاءِ عَنْهُ هَشِيمًا، فَحُذِفَ ذَلِكَ إِيْجَازًا لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ. و«الهشيم» المتفتت والمتكسر من يابس العشب، ومنه قوله تعالى: ﴿كَهَشِيمِ التَّمْتَحِيزِ﴾ [القمر: 31]، وَالْهَشْمُ: كَسْرُ الشَّيْءِ الْيَابِسِ، ومنه هشم الثريد، وبه سمي هاشم بن عبد مناف القرشي جد النبي ﷺ، واسمه عمرو؛ لأنه أول من هشم الثريد لقومه ولأهل الموسم في سنة المجاعة.

وقوله: ﴿تَذَرُولٌ﴾ أي: تفرقه، وقرأ ابن عباس: «تذريه»، والمعنى: تقلعه وترمي به. وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ إخبار عن أن الأمر قبل وجود الإنسان هكذا كان، إذ نفسه حاكمة بذلك في حال عقله، هذا قول سيبويه، وهو معنى صحيح. وقال الحسن: «كان» إخبار عن الحال قبل إيجاد الموجودات، أي: إن القدرة كانت، وهذا أيضا حسن. ومعنى ﴿مُفْتَرًّا﴾ أي: القوي القُدرة، الذي لا يعجزه شيء.

ومعنى هذا التأويل تشبيه حال المرء في حياته وماله وعزته وزهوه وبطره بالنبات الذي اكتسب خضرة ونضرة عن المطر النازل، ثم يعود بعد ذلك هَشِيمًا ويصير إلى عدم، فمن كان له عمل صالح يبقى في الآخرة فهو الفائز، فكأن الحياة بمثابة الماء والخضرة، والنضرة بمنزلة النعيم والعزة، ونحوه.

ثانيا: المال والبنون زينة الحياة:

وقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَافِيتَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا﴾. ما زال السياق متصلا من تمام المثل الذي أمر الله نبيه ﷺ أن يضربه مثلا للحياة الدنيا. أي: إنما المال والبنون زينة هذه الحياة المحقرة، فلا تتبعوها نفوسكم. وَإِنَّمَا كَانَ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِأَنَّ فِي الْمَالِ جَمَالًا وَنَفْعًا، وَفِي الْبَنِينَ قُوَّةً وَدَفْعًا، فَصَارَا زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وقوله: ﴿زِينَةٌ﴾ مصدر، وقد أخبر به عن أشخاص، فإما أن يكون على تقدير محذوف، وتقديره: مقرر زينة الحياة الدنيا، وإما أن نضع المال والبنين بمنزلة الغنى والكثرة. وقوله تعالى: ﴿الْبَافِيتَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ صفتان جرتا على موصوف محذوف، أي: الأعمال

الصالحات الباقيات. واختلف في الباقيات الصالحات، فقال ابن عباس وابن جبير وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل: هي الصلوات الخمس، ورجحه الإمام ابن العربي في أحكامه وقال: «وَبِهِ أَقُولُ، وَإِلَيْهِ أَمِيلُ، وَلَيْسَ فِي الْبَابِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، أَمَّا إِنْ فَضَّلَ التَّسْبِيحَ وَالتَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالْحَوْقْلَةَ مَشْهُورٌ فِي الصَّحِيحِ كَثِيرٌ، وَلَا مِثْلَ لِلصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي ذَلِكَ بِحِسَابٍ وَلَا تَقْدِيرٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ» [أحكام القرآن: 3 / 235 - 236] وقال الجمهور هي الكلمات المأثور فضلها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وروى في هذا حديث: «استكثروا من الباقيات الصالحات» [صحيح ابن حبان: 3 / 121، حديث 840]، وروى عن رسول الله ﷺ من طريق أبي هريرة رضي الله عنه وغيره أن هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات [سنن النسائي الكبرى: كتاب عمل اليوم والليلة - ثواب من سبح الله مائة تسبيحة وتحميدة وتكبيرة، حديث 10617]، وقال ابن عباس: الباقيات الصالحات كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للأخرة، ورجحه الطبري، وصوبه القرطبي.

وقوله: ﴿وَحَيْرٌ أَمَلٌ﴾ أي: وخير رجاء؛ لأن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الآخرة دون ذي المال والبنين العاري من الباقيات الصالحات، فإنه لا يرجو ثواباً. وقيل: خير في التحقيق مما يظنه الجهال أنه خير في ظنهم.

ثالثاً: لطائف وفوائد:

- في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أسلوب الجمع، وهو من المحسنات البديعية، وهو أن يجمع المتكلم بين أمرين أو أكثر في حكم واحد. وضده التفریق، وهو أن يفرق بين أمرين من نوع واحد في الحكم كقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِ الْبَخْرُ أَمْ دَابَّ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: 12].

- قال أبو بكر بن العربي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: «قَدْ بَيَّنَّا فِي كُتُبِ الْأُصُولِ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ مَا عَدَا اللَّهَ وَصِفَاتِهِ الْعُلَا، لَهُ أَوَّلٌ، فَإِنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ مَا عَدَا نَعِيمَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَعَذَابَ أَهْلِ النَّارِ لَهُ آخِرٌ، وَكُلُّ مَا لَا آخِرَ لَهُ فَهُوَ الْبَاقِي حَقِيقَةً. وَلَكِنَّ الْبَاقِيَ بِالْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ...، فَأَمَّا نَعِيمُ الْجَنَّةِ فَأُصُولٌ، مَذْخُلَتْ لَمْ تَفْنِ وَلَا تَفْنَى، بِخَبَرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفُرُوعٌ، وَهِيَ النِّعَمُ، هِيَ أَعْرَاضٌ إِنَّمَا تُوصَفُ بِالْبَقَاءِ عَلَى مَعْنَى أَنَّ أَمْثَالَهَا يَتَجَدَّدُ مِنْ غَيْرِ انْقِطَاعٍ،

فَهَذَا فَنَاءٌ وَتَجْدِيدٌ، فَيَجْعَلُهُ بَقَاءً مَجَازًا بِالإِضَافَةِ إِلَى غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ يَفْنَى فَلَا يَعُودُ، فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا....
فَالْأَعْمَالُ الَّتِي تَصْدُرُ عَنِ الْخَلْقِ مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ لَا بَقَاءَ لَهَا، وَلَا تَجَدُّدَ بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلْقِ، فَهِيَ
بَاقِيَاتٌ صَالِحَاتٌ وَطَالِحَاتٌ، حَسَنَاتٌ وَسَيِّئَاتٌ فِي الْحَقِيقَةِ، لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ الْأَعْمَالُ أَسْبَابًا فِي الثَّوَابِ
وَالْعِقَابِ، وَكَانَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ دَائِمَيْنِ لَا يَنْقُطِعَانِ، وَبَاقِيَيْنِ لَا يَفْنَيَانِ... وَصِفَتْ الْأَعْمَالُ بِالْبَقَاءِ،
حَمَلًا مَجَازِيًّا عَلَيْهَا» [أحكام القرآن: 3 / 233 - 234].

- قال الإمام القرطبي رحمه الله: «وقالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء،
لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على حال واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة
كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا
يبتل، كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً،
وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع، وفضولها يضر». [الجامع
لأحكام القرآن: 5 / 268].

التقويم

- 1 - ما مناسبة المثل المضروب في الآية لقصة صاحب الجنتين؟
- 2 - بم فسر ابن عباس رضي الله عنهما ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾؟ وما التوجيه الأصولي لتفسيره؟
- 3 - لم شبه الله تعالى الحياة الدنيا بالماء؟

الاستثمار

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ...﴾: «وَكَانَ
مُقْتَضًى الظَّاهِرِ فِي تَرْتِيبِ الْوَصْفَيْنِ أَنْ يُقَدَّمَ ﴿الصَّالِحَاتُ﴾ عَلَى ﴿الْبَاقِيَاتُ﴾ لِأَنََّّهُمَا وَإِنْ كَانَا
وَصْفَيْنِ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ، إِلَّا أَنْ أَعْرِفَهُمَا فِي وَصْفِيَّةِ ذَلِكَ الْمَحْذُوفِ هُوَ ﴿الصَّالِحَاتُ﴾،
لِأَنَّهُ قَدْ شَاعَ أَنْ يُقَالَ: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَاتُ وَلَا يُقَالُ الْأَعْمَالُ الْبَاقِيَاتُ، وَلِأَنَّ بَقَاءَهَا مُتَرَتِّبٌ عَلَى
صَالِحِهَا، فَلَا جَرَمَ أَنَّ الصَّالِحَاتِ وَصْفٌ قَامَ مَقَامَ الْمَوْصُوفِ، وَأَغْنَى عَنْهُ كَثِيرًا فِي الْكَلَامِ، حَتَّى

صَارَ لَفْظُ «الصَّالِحَاتِ» بِمَنْزِلَةِ الْإِسْمِ الدَّالِّ عَلَى عَمَلٍ خَيْرٍ، وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ ... وَلَكِنْ خُولِفَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ هُنَا، فَقَدَّمَ «الْبَافِيَاتِ» لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ مَا ذُكِرَ قَبْلَهُ - وَهُوَ الْمَالُ وَالْبَنُونَ - إِنَّمَا كَانَ مَفْضُولًا، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِبَاقٍ ... وَتَقْدِيمُ الْمَالِ عَلَى الْبَنِينَ فِي الذِّكْرِ، لِأَنَّهُ أُسْبِقَ خَطُورًا لِأَذْهَانِ النَّاسِ، لِأَنَّهُ يَرِغَبُ فِيهِ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالشَّابُّ وَالشَّيْخُ، وَمَنْ لَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا قَدْ كَفَاهُ». [التحرير والتوير: 15 / 330].

أتأمل النص ثم أجيب عن الآتي:

- 1 - أذكرُ مثالا من القرآن الكريم قام فيه الوصف بالصالحات مقام موصوفها «الأعمال».
- 2 - ما التعليل الذي ذكره ابن عاشور رحمه الله لتقديم وصف «الْبَافِيَاتِ» على وصف «الصَّالِحَاتِ»؟
- 3 - ما الحكمة التي ذكرها في تقديم المال على البنين؟

الإعداد القبلي

أراجع تفسير الآيات: 46 - 48 ثم أجيب عما يأتي:

- 1 - ما القراءات الواردة في قوله تعالى: «وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ»؟
- 2 - ما إعراب «صَبَّأً» في قوله تعالى: «وَعَرِضُوعًا عَلَى رَيْبَ صَبَّأً»؟
- 3 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: نُسَيِّرُ - نَغَايِرُ - أَحْصِيلَقًا.